الفـرد والجمـاعة
ومشكلات الاختلال العالمي

عبد الرحمٰن السالمي

تُشـير عدَّةُ آياتٍ في القرآن الكريم إلى استخلاف الإنسـان في الأرض للإعمار وتحقيق إرادة الله في كرامة الإنسان، وسموّ إنسـانيته، وهذا الاستخلاف لا تَفْرقَةَ فيـه ولا تمييز؛ بل هو شـاملٌ وعامٌّ من حيـث تولّي المهمة ومسـؤولياتها، وفي الآية المشهورة في سورة الأحزاب (72): ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ وكما كثرت التفسـيرات والتأويـلات فـي معانـي الاسـتخلاف ودلالاتـه ومقاصـده ومواقعه بيـن الإرادة والقدرة والتمكيـن، واختلفت التأويلات لمفـرد (الأمانـة)، والراجح أنها هي الاسـتخلاف ذاتـه، ومقتضياتـه في القـدرات التـي وهبها الله سـبحانه للإنسـان في العقل والتدبّـر والتقدير. فهنـاك ـ من جهة ـ الكرامـةُ والتكريـم بالمهمـة، وهنـاك ـ من جهـةٍ أُخرى ـ المسـؤوليةُ اسـتناداً إلى مقادير أداء تلك المهمـة ونوعياتها وتداعياتها وعواقبها بالنسـبة للإنسـان الـذي خلقه المولى

سبحانه في أحسن تقويم؛ بمعنى أنه أعدَّه لأداء أمانة العمران البشري والكوني أحسنَ إعداد. ومن هنا يأتي ترتُّب المسؤوليةِ في عالم الكون والفساد.

بعد التقرير للاستخلاف والمسؤولية يأتي الحديث في الآية عن التنظيم: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: 165]؛ فالرفع ليس في أصل الخَلْق؛ لأنّ الأصل واحد، والاشتراك واحد، وإنما تختلف درجات المسؤولية تبعاً لثقل الأعباء والمهمة التي يقوم بها الفرد من ضمن المشروع، وتقوم بها الجماعة؛ وذلك ليس لأنّ هناك مَنْ له فضلٌ على غيره؛ بل لأنّ المسؤولياتِ درجاتٌ لاختلاف الولايات وتفاوتها. والصيغة في الآية صيغة الجمع؛ أي إنّ النوع الإنساني هو القائم بالمهمة، وهذا يقتضي ـ ومن ضمن التنظيم الذي تتفاوت فيه درجات المسؤولية ـ أنّ البشر جميعاً مسؤولون؛ وإن تمايزت الدرجات أو تميّزت بلاءً وابتلاءً؛ فيصبح معروفاً أنّ المطلوب التعاون في إعمار الكون: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: 2]؛ فالابتلاء موجودٌ في كل حال، وهو درجاتٌ وأصنافٌ والمعتد فيه الوعي بالمهمة، والإرادة الطيبة (إرادة البر والتقوى)، وليس إرادة الإثم والعدوان. فهناك إذن: البر والتقوى، وهما صفتان لحُسْن الأداء من جهة، والإثم والعدوان المعبران عن سوء النية والاعتداء على الآخرين من جهة أخرى. البر في مقابل الإثم، والتقوى في مقابل العدوان. وبذلك فقد تحدّد كل شيء: تحدّدت الكرامة والأمانة للابتلاء والمسؤولية، وتحدد عمل الفرد، كما تحدّد موقفه من الجماعة وفيها.

من خلال التاريخ الإنساني كلّه، وقع موضوع الفرد والجماعة في قلب مسألة عمران العالم، والمجتمع الإنساني؛ أي ما علاقة الفرد بالجماعة؟ وكيف تُحفظُ وتتحدّد علاقة كلٍّ منهما بالطرف الآخر؟ فلا يجوز أن يُلغي الفردُ الجماعةَ، ولا أن تُلغي الجماعةُ الأفرادَ. فلا ينبغي أن يتميّز الفرد بحيث يعتقد بأنه نسيجٌ وحْدِهِ، كما لا يجوز أن تَسْحَق مصالحُ الجماعة العامة إنسانية الفرد وكرامته.

وفي القرنيــن الأخيرين بــرزت الأُطروحة التي تعدّ الفرد الإنســاني هو المتقدّم، وعُدَّتْ هذه المقاربــةُ الغربية الفردية روحَ المجتمع الإنســاني، أو روح الحقّ الفردي الإنساني. واستناداً إلى هذا الأصل تفرّعت ثلاثة أمور:

الأول: تبلور ما صار يُعرف بالعقد الاجتماعــي بين الأفراد والفئات لإقامة المجتمع.

والثاني: النظام الاقتصادي، ومـا يقوم عليه: أهـو الحـق الفردي أم المصالح الجماعية.

والثالث: النظام السياســي وأساسُــهُ هو الحق الفــردي أم مصلحة الجماعة في صون أمنها وكفايتهــا. وقد جرى التمييز بين النزعة النفعية أو المذهــب النفعي أو البراغماتــي، والآخر المذهــب الجماعي. وتجلى ذلك في القرنين التاسع عشر والعشرين، في صورة الرأسمالية والحقوق الفرديــة والتنافُس والحرية والســوق من جهةٍ، والمذهــب الجماعي في الأنظمة الاشــتراكية والشــمولية من جهةٍ أخرى. وقــد رأى الكثيرون من المفكريــن الاقتصاديين والسياســيين أنــه يمكن الجمع والتوســط بين الأمرين عن طريق ضماناتٍ للحقوق الأساسية للأفراد، وعن طريق حفظ الأمن والاســتقرار للمجتمع العام. بيد أنّ الصراع على المستوى العالمي في الحــرب البــاردة أدّى إلى تقــدّمٍ للنفعية الرأســمالية على حســاب النزعات الجماعية. وهذا باسم الحريات الفردية، وذلك باسم مجتمعات الكثرة والأمن والاستقرار.

جون رولز رأى ـ في كتابه: نظرية العدالة (1971) ـ أن النفعية المُسرفة كانت بين أســباب الاختــلال على المســتوى العالمي. وإذا كانت الشــمولية الجماعية قد تراجعــت فإنها لم تفقــد كل جاذبيتهــا؛ لأنّ العدالة هي حُلمٌ إنســانيٌّ كبيرٌ؛ ولذلك رأى أنه لا بد من الخروج من النفعية في المجتمعات الليبراليــة الديمقراطية، باتجاه فلســفةٍ للخير العام، لا تقــع في الجماعية

والشـمولية. وقد كان كتابه هذا مجالاً لنقاشٍ هائلٍ طـوال أربعة عقود. فمن المفكرين مـن انتصر للجماعية، ومنهم من أصرَّ على أنّ النفعية المسـؤولة تظلّ هي مستقبل البشرية. شـعار جون رولز هو إعادة التوزيع باتجاه عدالة التوزيع، ومن وجهة نظر رولز فإنّ الحرية الفردية تظل حجر الزاوية؛ لكنها لا بد أن تكونَ مسـؤولة. وأمارتيا صَن (Amartya Sen) ـ الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد من أصل هندي ـ يسـأل جون رولـز: ما الذي يضمن هذه المسـؤولية، وتكون لذلك نتائج اجتماعية؟ ورولز يريـد أن يضمن القانون والتشـريع هذه المسـؤولية. ويرى ذلك ممكناً فـي المجتمعـات الليبرالية المتقدّمة. أما ساندل وأمارتيا صَنْ فلا يريان مجالاً للخروج من الاختلال إلّا بتغيير النمط الاقتصادي على مستوى الدول ومستوى العالم.

ما هو الاختـلال العالمي الناجم عـن الاختلال في العلائـق بين الفرد والجماعة؟

يقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائـدة: 18]. لقد غبر زمانٌ على الذين ابتلاهم الله ﷻ برفع الدرجات، وقد اسـتقر فـي أخلادهم وأعمالهم وتصرفاتهم أنّ حال السـيادة والسطوة الذي يسـتمتعون به لن يتغير، وأنهم يسـتطيعون المُضيَّ قُدُماً في السـوء الذي يغرقون فيه. وقـد جاء هذا الداء الفيروسي الخفي والضئيل فنال من كل أحد وكل شيء، مثل الحشرة الصغيرة التي يقال إنها دخلت في أنف النمرود عدو إبراهيم أبي الأنبياء، فقضت عليه بعد عذابٍ وتعذيـب. إنّ الله ﷻ يبتلي بأضعف خَلْقـه، وهذا هو الذي يحدث الآن؛ لكي يتعظ المسـرفون ونتعظ نحن جميعاً فنُقبل على إصلاح الاختلال، والخروج من هذا الجبروت الـذي يضر ولا ينفع، والذي لا يفيد في دفعه إلّا الأَوبـةُ إليه سـبحانه، بحيـث نتعاون جميعـاً على البـر والتقـوى، ونتجنب الانخراط في الإثم والعدوان.

لقد احتاج الأمر إلى حــربٍ عالميةٍ أُولى، وإلى الحمَّى الأســبانية التي قتلت ملايين وملايين حتى صار الأقويــاء والنافذون إلى ميثاق عصبة الأُمم. واحتاجــوا إلى الحرب الثانية المدمّرة حتى اشــترعوا ميثــاق الأمم المتحدة والإعلان العالمي لحقوق الإنســان، والوكالات والمفوضيات الدولية الأُخرى، والتي عادوا فعطّلوها بســبب الصراعات على الموارد والنفوذ. نحن محتاجون اليوم إلــى التعاون على البر والتقوى من أجل صَــون أرواح وأرزاق الضعفاء، وصنع عالمٍ للسلام والتآزر واجتراح الجديد والمتقدّم.

لقد كانت رســالة التآزر والتعاضد ووحدة الإنســانية هي التي نشــرتها مجلة **التفاهم** في العدد الســابق (رقــم 67) بعنوان: إعلان الســلطان قابوس للمؤتلف الإنســاني. وهو إعلانٌ يدعــو للتبصّر في الوضع الإنســاني الخطير الناجم عن تجاهل السلام والعدالة وإنسانية الإنسان.